

الفصل الثاني

نشأة التصوف

obeikandi.com

الفصل الثاني

نشأة التصوف

إن العمومية والتشريق والتغريب الذي واجه كلمة التصوف « لغة » قد واجهها اصطلاحاً كما مر في المباحث السابقة، والمسألة ذاتها تعترض البحث عند محاولة الكشف عن البدايات الحقيقية لهذا الفكر بغض النظر عن التعريف اللغوي والاصطلاحي.

فقد ذهب الشيخ عبد الرحيم محمود مذهباً بعيداً حيث قال:

" إن التصوف باعتباره فكرة وباعتباره حالة نشأ مع نشأة الإنسان والاستدلال على هذا لا يتأتى أن يستند إلى نصوص لأن نشأة الإنسان كانت قبل الكتابة والتسجيل، ولكنه من البديهي أن الإنسان منذ نشأته يتطلع إلى معرفة الغيب وإلى استشراف عالم ما وراء الطبيعة بل وإلى الاتصال بذلك العالم عن طريق الوسيلة الصحيحة لهذا الاتصال. وهذه الفكرة على هذا الوضع تقرها الأديان على وجه العموم، ذلك أن الأديان تعترف بنبوة آدم... النبوة أعلى درجة من التصوف إنها تتضمنه وتزيد عليه (١).

ولقد حاول الشيخ أن يُبعد التصوف عن أي مؤثرات أجنبية في استعراض لأقوال المستشرقين ومحاولة الرد عليها إلى أن قال: « لقد وقف الكاتبون من التصوف موقفهم من الثقافة الكسبية، والثقافة الكسبية يتأتى فيها التأثر والتطور والتقليد فالكاتب أو الشاعر أو المفكر الذي يستمد ثقافته من البيئة الخارجية، يتكون ويتشكل بما يقرأ وبما يدور حوله وبما يتشربه من بيئة، ونتاجه إذن هو أثر للبيئة الخارجية، اللهم إلا إذا كانت له أصالة تسمو به عن أن يكون صدى

(١) أبحاث في التصوف مع المنقذ من الضلال ص/ ٢١٩ دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ط ٢

للسُّوط الذي يعيش فيه . ولكن التصوف والصوفية ليسا من هذا الوادي» (١) .

لكن الشيخ - رغم دفاعه هذا - عاد وربط معنى النشأة بشكل وثيق بمعنى الفلسفة الإلهية، التي هي حسب ما قال محاولة الكشف عن الإله ، ثم الاتصال به (٢) ، والعجيب أن عبد الحلیم محمود يرفض أن تكون الصوفية مأخوذة من أصل يوناني ويرد على محمد لطفي جمعة الذي قال: إن هذه النسبة (نسبة الصوفية إلى الصوف) تجرد هذه الفرقة المنتمية إلى الإسلام من صفة الحكمة والفضيلة (٣) .

فيقول: إن أصحاب هذا الرأي يعطون قوة وتأکید لمن يزعم أن التصوف الإسلامي وليد الأفلاطونية وهو رأي باطل (٤) .

أما الرأي الثاني: فيعتبر الصوفي الأول هو العبد الصالح الذي آتاه الله من كُدُّه علماء ، وتعلم موسى من علمه اللدني وهو الذي يُعرف بالخضر .

بمعنى آخر: إن التصوف من زمن موسى ﷺ ، ومؤسسه هو الخضر .

قال ابن عربي: وكان الخضر ﷺ ألبسه الخرقه بحضور العارف قضيب البان (أي ألبسها للشيخ ابن عربي وهو علي بن عبد الله بن جامع) (٥) وألبسنيها المسيح عليه الصلاة والسلام بالموضوع الذي ألبسني فيه الخضر ﷺ .

وقال ابن عربي: ولقد لقيتُ الخضرَ بأشبيلية وأفادني التسليم لمقالات الشيوخ وأن لا أنازعهم وإن كانوا مخطئين في نفس الأمر .

وقصة إبراهيم ابن أدهم الطويلة عندما خرج للصيد ، وهتف به هاتف من قربوس السرج قائلاً : والله ما لهذا خُلِقْتَ ولا بهذا أُمرت... إلى أن قابل رعاة أبيه

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام ص/ ٢١٦ دار الكتاب اللبناني .

(٢) نفس المصدر / ص ٢٤١ .

(٣) أبحاث في التصوف / ص ١٥٦ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) فيض القدير ٢ / ٥٧٦ .

فأعطاهم ثيابه وأخذ ثيابهم ثم قابل رجلاً فعلمه اسم الله الأعظم فدعا به بعده فرأى الخضر عليه السلام وقال (أي الخضر) لإبراهيم إنما علمك أخي داود اسم الله الأعظم فلا تدع به على أحد... (١)

ومرد الاهتمام بالخضر عليه السلام أمور:

أولها: أنه يشكل - بزعم الصوفية - نموذجاً لما يعتقد الصوفية من العلم اللدني. فقد قال الله تبارك وتعالى عن العبد الصالح (الخضر) ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٥) [الكهف: ٦٥].

ثانياً: إنهم يقولون أن الخضر وليٌ وليس نبياً، وما دام العلم اللدني يمكن أن يأتي للأولياء وتعارض به الشرائع - فيأذن من حقهم أن يعملوا بالعلم اللدني فيما يخصهم. قال الشعراني: سمعت شيخنا علي الخوَّاص يقول: لا يكْمُل الرجل عندنا حتى يعلم حركات مریده في انتقاله في الأصلاب من يوم (ألست بربكم) إلى استقراره في الجنة أو النار. والله أعلم (٢).

ويقول ابن عربي: "... ورُبَّ حديث قد صححوه (أي أهل الشريعة) وليس بصحيح عندهم من طريق الكشف فيتركون العمل به..." (٣)

ونقل الشعراني في الكبريت الأحمر عن ابن عربي: قوله: ما بقي للأولياء إلا وحي الإلهام على لسان ملك مغيب لا يشاهد فيعلمهم بصحة حديث قيل تضعيفه أو عكسه من طريق الإلهام بغير شهود الملك، إذ لا يجمع بين شهود الملك وخطابه إلا الأنبياء، فإن سمع صوتاً لا يرى صاحبه وإن رأى الملك لا يسمع

(١) الرسالة القشيرية ص ٦٤ وانظر تفاصيل القصة في «حلية الأولياء»، «تهذيب الكمال»، «سير أعلام النبلاء» في ترجمة إبراهيم بن أدهم. علماً أن هناك أقوال لا بأس بها تشير إلى تقوى ابن أدهم وإلى ضعف أسانيد هذه القصة، لذا فالبحث معني بالحدث أكثر من عنايته بصحة نسبة القصة للرجل من عدمها.

(٢) الكبريت الأحمر / بهامش البواقيت والجواهر ص ٣٣٠.

(٣) رسائل ابن عربي / رسالة الفناء ص ٤.

له كلاماً ، إذ لا تشريع في وحي الأولياء فافهم (١) .

ثالثاً إنهم يقولون باستمرار حياة الخضر وبالتالي فإن لم يكن الكشف منهم فرمما أخذوا الكشف عنه .

وأكثر أهل العلم على أن الخضر عليه السلام نبي وليس ولياً ، وعلى أنه مات وليس بحي (٢) . قال أبو الخطاب بن دحية : « ولا يثبت اجتماع الخضر مع أحد من الأنبياء إلا مع موسى عليه السلام وكما قصه الله تعالى . وأما ما جاء به المشايخ فهو مما يتعجب منه ، كيف يجوز لعاقل أن يلقي شخصاً فيقول له أنا فلان فيصدقه » (٣) .

قال في نقد المنقول : " من الأحاديث الموضوعة أحاديث حياة الخضر عليه السلام ... وكلها كذب ولا يصح في حياته حديث واحد " (٤) .

وسئل كثير من الأئمة عن حياة الخضر عليه السلام فتلوا قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ (٣٤) [الأنبياء : ٣٤] ، وسيتم تفصيل هذه المسألة في محلها من البحث إن شاء الله .

الرأي الثالث : إن التصوف جزء من دين الإسلام . ويدافع عن هذا الرأي المستشرق الفرنسي - رينيه جينو - الذي أسلم وصار اسمه بعد إسلامه عبد الواحد يحيى (٥) ، فيقول بعد مقدمة متوسطة : (من كل ما سبق يمكننا أن نستنتج أن الصوفية ليست شيئاً أضيف إلى الدين الإسلامي ، إنها ليست شيئاً أتى من الخارج فألصق بالإسلام وإنما هي على العكس تُكوّن جزءاً جوهرياً من الدين إذ أن الدين بدونها يكون ناقصاً ، بل يكون ناقصاً من جهته السامية أعني جهة المركز الأساسي) .

(١) الكبريت الأحمر ٣٣ و ٣٤ .

(٢) نوقشت هذه المسائل بتوسع في فتح الباري لابن حجر/ عون المعبود / الإصابة / وغيرها وانظر الفكر الصوفي لعبد الرحمن عبد الخالق، ومظاهر الانحرافات العقديّة عند الصوفية لإدريس محمود إدريس .

(٣) عون المعبود ١١ / ٢٩٩ .

(٤) نقد المنقول ١ / ٦٢ .

(٥) أبحاث في التصوف - عبد الحلیم محمود . هامش ص ٢٢٣ .

ويتبنى هذا الرأي من المستشرقين أيضاً المستشرق (ماسينيون)، ويؤيد الرأيين عبد الحلیم محمود شیخ الأزهر الأسبق فیقول: "أما أن التصوف دخیل علی الإسلام فیکفینا فی الرد علی ذلك أن نتذكر ثلاثة آراء. الأول للشیخ عبد الواحد یحیی وهو فیلسوف صوفي مسلم^(١)، والثاني للمستشرق الشهیر (ماسینیون) الذي یعتبر أعظم باحث فی التصوف... " وهذا الرأي الثالث یقول به أغلب المتصوفة ولكن بدون تأصیل للموضوع حیث یکاد یكون إجماعاً عند الصوفية أن أعلى سند خرقة الصوفية علی بن أبی طالب وأبا بكر الصديق - وكلاهما أخذ عن الرسول الکریم ﷺ. وبالتالي فالتصوف برأي هؤلاء جزء لا یتجزأ من الإسلام.

فهذا أبو نعیم صاحب حلیة الأولیاء الذي ترجم لمشایخ الصوفية بدأ بأبى بكر الصديق.^(٢) ثم لبقيّة الخلفاء الراشدين وأتبعهم بکبار الصحابة). وقد ردّ علیه ابن الجوزي فی كتابه تلبیس إبليس فقال: وجاء أبو نعیم الأصبهاني فنصف لهم (للمصوفية) كتاب الحلیة وذكر فی حدود التصوف أشياء قبیحة، ولم یستح أن یذكر فی الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعلیاً و سادات الصحابة رضی الله عنهم^(٣). وذات الأمر مع فارق بسیط یظهر عند أبی بكر الکلاباذي صاحب كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف حیث یقول: وممن نطق بعلومهم وعبر عن مواجیدهم ونشر مقاماتهم ووصف أحوالهم قولاً وفعلاً بعد الصحابة رضوان الله علیهم علی بن الحسین زین العابدین وابنه محمد... و أویس القرني وهرم بن حیان والحسن البصري..."^(٤).

وقد جاء فی أثر غیر صحیح أن الحسن البصري لبس الخرقة من علی بن أبی طالب، قال ابن دحیة وابن الصلاح هذا الخبر باطل، ولم یسمع الحسن من علی

(١) أبحاث فی التصوف / عبد الحلیم محمود / ص ٢٢٨+٢٢٩ .

(٢) حلیة الأولیاء لأبى نعیم. ١ / ٢٨ وما بعدها ترجمة أبی بكر علی أنه صاحب أحوال.

(٣) تلبیس إبليس / ابن الجوزي / ص ١٥٩ .

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف / ص ٢٧ .

حرفاً بإجماع العلماء فكيف يلبسها (الخرقة) منه وقال الحافظ بن حجر: ليس في شيء من طرقها ما يثبت، ولم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أن النبي ﷺ ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية، لبعض أصحابه ولا أمر أحداً من الصحابة بفعل ذلك. وكل ما روي صريحاً بذلك فباطل (١).

ثم قال (ابن حجر): إن من الكذب المفتري قول من قال إن علياً ألبس الخرقة للحسن البصري فإن أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن من علي سماعاً فضلاً عن أن يلبسه الخرقة. (٢)

وقال يوسف السيد هاشم الرفاعي - من المعاصرين :-

(والتصوف هو الدين الخالص والنية الخالصة لله التي قامت على مبدأ تحقيق العبودية وتعظيم الربوبية وتحقيق عمارة البواطن بالمعارف والأسرار والرضا والتوكل والإخلاص وعمارة الظواهر بالعبادة والورع والتقوى ومتابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله) (٣). وأحال السيد هاشم الرفاعي القارئ إلى كتاب الأنوار القدسية للشعراني لبيان أنهم على السنة ونقل عقائد القوم ومما جاء في بيان هذه العقيدة عن الحق تبارك وتعالى قول الشعراني (بل وجوده مطلق مستمر قائم بنفسه ليس بجوهر فيقدر له المكان ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء، مُقَدَّسٌ عن الجهة والأقطار مرئي بالقلوب والأبصار استوى على عرشه كما قال وعلى المعنى الذي أراد كما أن العرش وما حواه به استوى ...) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله :-

"ومن المعلوم أن طريقة الكلام في الجواهر والأعراض في أدلة أصول الدين ومسئلة هي الطريق التي سلكها المعتزلة، وأخذها عنهم متكلمة الصفاتية من

(١) كشف الخفاء ٢ / ١٨٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) الصوفية والتصوف في ضوء الكتاب والسنة . / دار إقرأ ط ١ / ٢٠٠١ / ص ١٤ .

الأشعرية ونحوهم، وهي الطريقة التي أشار إليها أبو القاسم (أي القشيري) (١). ونقل شيخ الإسلام كلام أبي عبد الرحمن السُّلَمِي (٢)، فقال: قوله رأيت بخط عمرو بن مطر يقول.. سئل ابن خزيمة عن الكلام في الأسماء والصفات، فقال: بدعة ابتدعوها ولم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب وأئمة الدين مثل مالك وسفيان، والأوزاعي والشافعي وأحمد... وابن المبارك يتكلمون في ذلك، وكانوا ينهاون عن الخوض فيه (٣).

كما علق الشيخ ابن تيمية على عبارة (كما أن العرش وما حواه به استوى) على اعتبار أن هذه الفقرة نقلها أبو قاسم القشيري عن الشبلي، فرد عليها الشيخ ابن تيمية قائلاً: «هذا الكلام ليس له إسناد عن الشبلي وهو يتضمن من الباطل ما هو تحريف للقرآن... أما قوله العرش بالرحمن استوى، فهو أولاً خلاف القرآن فإن الله أخبر أنه هو الذي استوى على العرش، فكيف يُقال أن المستوي إنما هو العرش. وأما ثانياً فإنه إذا قال العرش به استوى ليس أبلغ من قوله إنه استوى على العرش» (٤).

والذي يراه البحث أن دعوى الصوفية أن التصوف جزء من الدين أو هو الدين، وأنه التمسك بالكتاب والسنة إنما هي دعوى عريضة خالية عن الدليل، بل الواقع يشهد بضدها ومخالفات القوم للكتاب والسنة كثيرة جداً. وقديمة جداً.

وهذه بعض الأمثلة:

[١] دخل «أبو حمزة الصوفي» دار الحارث المحاسبي وكان للحارث دار حسنة وثياب نظاف وفي داره شاة مرغية، فصاحت الشاة مرغية، فشهِق أبو

(١) الاستقامة / ابن تيمية / دار ابن حزم ط ٢٠٠٤، وأبو القاسم هو القشيري وابن تيمية يرد على ما جاء في رسالته المعروفة بالرسالة القشيرية. ص ٥٥.

(٢) محمد بن الحسين السلمي أبو عبد الرحمن يعد من طبقة مشايخ القشيري ومن شيوخ القوم.

(٣) الاستقامة ص ٥٧.

(٤) المرجع السابق.

حمزة شهقةً وقال: "لبيك يا سيدي" فغضب الحارث وعمد إلى سكين فقال: إن لم تتب من هذا الذي أنت فيه أذبحك، فقال له أبو حمزة أنت إذا لم تحسن أن تسمع هذا الذي أنت فيه فلم لا تأكل النخالة بالرماد (١).

[٢] كتب الحسين بن منصور الحلاج إلى بعض تلامذته: السلام عليك يا ولدي، ستر الله عنك ظاهر الشريعة وكشف لك حقيقة الكفر فإن ظاهر الشريعة شرك خفي، وحقيقة الكفر معرفة جلية أما بعد: اعلم أن الله تعالى تجلى عن رأس إبرة لمن يشاء وتستتر في السماوات والأرضين عمن شاء، شهد أنه لا هو، وشهد ذلك أنه غيره، فالشاهد بإثباته والشاهد على نفيه غير مذموم والمقصود من هذا الكتاب أن أوصيك، أن لا تغتر بالله، ولا تياس منه، ولا ترغب في محبته، ولا ترض أن تكون له غير محب، ولا تقل بإثباته ولا تمل إلى نفيه، وإياك والتوحيد والسلام (٢).

[٣] حكى أن أبا تراب النخشي كان معجباً ببعض المريدين فكان يدينه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدهته فقال له أبو تراب يوماً: «لو رأيت أبا يزيد، فقال: إني عنه مشغول، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد هاج وجد المريد، فقال: ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغنانني عن أبي يزيد قال: أبو تراب فهاج طبعي ولم أملك نفسي فقلتُ ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال فبُهِتَ الفتى من قوله وأنكره فقال وكيف ذلك قال له ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ما قلت فقال: احملني إليه فذكر قصة قال في آخرها فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة وكان يأوي إلى غيضة فيها سبع

(١) اللمع للسراج ص/ ٤٩٥. والحارث المحاسبي من أقران الإمام أحمد بن حنبل كما هو معلوم. فانظر إلى تاريخ الانحراف.

(٢) رسائل ابن عربي / رسالة الشيخ للإمام الرازي ص ١٣ / ط ١ مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية / حيدر آباد ١٩٤٨ م.

قال : فَمَرَّبْنَا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى هذا أبو يزيد فانظر إليه ، فانظر إليه الفتى فصعق فحركناه فإذا هو ميت فتعاوننا على دفنه فقلت لأبي يزيد يا سيدي نظره إليك قتله، قال : لا ، ولكن كان صاحبكم صادقاً واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رأنا انكشف له سر قلبه فضاقت عن حمله لأنه في مقام الضعفاء المرئيين فقتله ذلك (١) .

ومن شاء الاستزادة فليرجع إلى كتاب « الكشف عن حقيقة الصوفية » (٢) فقد جمع ما لم يجمعه غيره من أقوال القوم التي تحمل مخالقات شرعية مختلفة المستويات .

والرأي الأخير: هو أن التصوف مذهب لم يكن معروفاً في القرون الثلاثة الأولى الموسومة بالخيرية، حسبما جاء في حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : (ثم إن خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران : فلا أدري أقال الرسول ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثة (٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

" أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به غير واحد من الأئمة والشيوخ، كالإمام أحمد ابن حنبل وأبي سليمان الداراني وغيرهم " (٤) .

قال شيخ الإسلام في وصف حالهم: وكان فيهم من يُصعقون عند سماع القرآن، ولم يكن في الصحابة من هذا حاله فلما ظهر ذلك أنكروه طائفة من الصحابة والتابعين، كأسماء بنت أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن

(١) إحياء علوم الدين ٤ / ٣٥٦ .

(٢) الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ / محمود عبد الرؤوف القاسم / دار الصحابة ١٩٨٧ .

(٣) متفق عليه، البخاري برقم ٢٥٠٨، ٣٤٥٠ ومسلم ٢٥٣٣-٢٥٣٥ .

(٤) مجموع الفتاوى ١١/٥ .

سيرين ونحوهم (١) .

وقال ابن خلدون: " هذا العلم من العلوم الحادثة في الملة (٢) ثم قال : فلما كتبت العلوم ودونت ... فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس في الأخذ والترك كما فعله المحاسبي في كتاب « الرعاية » ، ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها .. كما فعله القشيري في « الرسالة » والسهورودي في كتاب « عوارف المعارف » وأمثالهم " (٣) ثم انتقل للحديث عن المتأخرين منهم فقال : ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب كثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا وملأوا الصحف منه، مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره، وتبعهم ابن عربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم، وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة » (٤) .

ويرى الشيخ محمد العبدية: أن مرحلة انتقالية حدثت بين الزهد المشروع وبين التصوف حين أصبح له تأليف خاصة، يمثل هذه النقلة مالك بن دينار فتراه يدعو لأموال ليس عند الزهاد السابقين منها التجرد - أي ترك الزواج - وكان يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوي إلى مزاب الكلاب (٥) .

(١) مجموع الفتاوى ١١/٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٢ دار الفكر ط ١ ١٩٩٨ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٣-٤٦٤ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ٤٦٨ ومن قول الهروي - ما نقله ابن خلدون في ص ٤٦٩ .

ما وحد الواحد من واحد / إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته / تثنية أبطلها الواحد

توحيد به إياه توحيد / ونعت من ينعت جاحد

(٥) الصوفية نشأتها وتطورها / محمد العبدية وطارق عبد الحليم / دار الأرقم / برمنجهام / ط ٣ سنة

١٩٩٣ ص ٢٠+٢١ .

والرأي الذي قال به ابن تيمية وابن خلدون هو الذي يميل إليه البحث ويراه صحيحاً من حيث التوصيف الزمني، وقد أيد هذا الاتجاه في المباحث السابقة حيث شهد الاشتقاق اللغوي بأن اللفظة مستحدثة _ والمعنى الاصطلاحي بأنها كذلك، وأن هذا كله كان بعد القرون الخيرية الواردة في حديث الرسول الكريم .
والتصوف الحادث هذا من نشأته الأولى مال إلى الابتداع في الدين سواء كان ذلك في العقائد أو في العبادات أو في المعاملات . ومن أمثلة ذلك :

قول أبو حمزة الخراساني: حججت سنة من السنين فكنت أمشي فوقعت في بئر فنازعني نفسي بأن أستغيث فقلت لا والله لا أستغيث فما استتممتُ هذا الخاطر حتى مر برأس بالبئر جلان فقال أحدهما للآخر : تعال حتى نظم رأس هذا البئر من الطريق فأتوا بقصب وبارية وهممت أن أصيح ثم قلت يا من هو أقرب إلي منهما وسكتُ حتى طمؤا ومضوا فإذا أنا بشيء قد دلى برجليه في البئر وهو يقول تعلق بي فتعلقتُ به فإذا هو سبَّع وإذا هاتف يهتف بي ويقول لي يا أبا حمزة هذا حسن نجيناك من التلف في البئر بالسبع (١) .

وقال أبو سعيد الخراز: كنت في البادية فنالني جوع شديد فطالبتني نفسي بأن أسأل الله طعاماً فقلتُ : ليس هذا من فعل المتوكِّلين ، فطالبتني أن أسأل الله صبراً ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفاً يقول :

ويزعم أنه منا قريب وأنا لا نضـيـع من أتاننا
ويسألنا القوى عجزاً وضعفاً كأننا لا نراه ولا يرانا (٢)

والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١٨٦) [البقرة: ١٨٦] .

وقال تعالى: ﴿ وَذَكَرِيًّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٨٩)

(١) التعرف لمذهب أصل التصوف ص ١٥٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَدْعُونََنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء : ٨٩ - ٩٠] .

■ دخل جماعة على رابعة العدوية يعودونها من شكوى، فقالوا: ما حالك؟
قالت: والله ما أعرف لعلتي سبباً غير أنني عرضت عليّ الجنة فَمِلْتُ بقلبي إليها
فأحسستُ أن مولاي غار علي فعاتبني فله العتبي (١) .

قال إبراهيم بن شيبان: وافاني بعض المريدين فاعتلّ عندي أياماً فمات،
فلما أن أدخل في قبره، أردت أن أكشف خدّه، وأضعه على التراب تذلاًّ لعل
الله يرحمه فتبسم في وجهي وقال: تُدَلِّلُنِي بين يدي من تُدَلِّلُنِي، قلت: لا يا
حبيبي أحياء بعد الموت؟! .

فأجاب: أما علمت أن أحياءه لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار (٢) .

الصُّوفِيَّةُ وَالزُّنْدُقَةُ :

وقد اتهم أغلب مؤسسي التصوف في أزمانهم بالزندقة فقد روى ابن
الجوزي عن محمد عبد الباقي أنبأنا أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي
عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: أول من تكلم في بلدته في ترتيب الأحوال
ومقامات أهل الولاية ذو النون المصري وأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم وكان
رئيس قضاة مصر، وكان يذهب مذهب مالك وهجره لذلك علماء مصر لما شاع
خبره أنه أحدث علماء لم يتكلم فيه السلف حتى رموه بالزندقة (٣) .

قال السلمي: وأخرج أبو سليمان الداراني من دمشق وقالوا أنه يزعم أنه يرى
الملائكة وأنهم يكلمونه، وشهد قوم على أحمد بن أبي الحواري أنه كان يفضل

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٥٥ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٥٨ .

(٣) تلبس إبليس ص ١٦١ - وذو النون توفي ٢٤٥هـ .

الأولياء على الأنبياء (١) ، فهرب من دمشق إلى مكة وأنكر أهل بسطام على أبي يزيد البسطامي ما كان يقول ... فأخرجوه من بسطام ... وأنكر قوم على سهل ابن عبد الله حتى نسبوه إلى القبائح فخرج إلى البصرة فمات فيها قال السلمي : وتكلم الحارث المحاسبي في شيء من الكلام في الصفات فهجره أحمد بن حنبل فاختلف إلى أن مات (٢) .

وقال السراج (٣) وأنكر جماعة على أبي سعيد أحمد بن عيسى الخراز ونسبوه إلى الكفر بالفاظ وجدوها في كتاب صنفه ... وقال أبو العباس أحمد بن عطاء : نُسِبَ إلى الكفر والزندقة (يعني أبا سعيد الخراز) وكم من مرة قد أخذ الجنيد مع علمه وشهد عليه بالكفر والزندقة، وكذلك أكثرهم (٤) .

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال حكى عن عمرو المكي أنه قال : كنتُ أماشي الحسين بن منصور (الحلاج) في بعض أزقة مكة وكنت أقرأ القرآن فسمع قراءتي فقال يمكنني أن أقول مثل هذا، ففارقتَه (٥) .

ما تقدم يشهد للقول بأن مذهب التصوف مذهب حَادِث في الإسلام لم تعرفه القرون الخيرية . وقد كان في عامة توجهه ميل إلى الابتداع، وما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من الثناء على بعضهم أو الاعتذار عنهم فهو كما يقول الشيخ محمد العبدية : "منهج ابن تيمية رحمه الله في الجنيد وأمثاله من أوائل الصوفية هو الاعتذار عن بعض كلماتهم أو استبعادها لما يرى من صدقهم في عباداتهم،

(١) مسألة تفضيل الأولياء على الأنبياء مشهورة عند الصوفية وقد فصل فيها القول شيخهم الذي يلقبونه بالحكيم محمد بن علي الترمذي في كتابه ختم الولاية . وسار على نهجه ابن عربي ويستمدون التأصيل الأول لذلك من أن الخضر بزعمهم ولي . وقد أوتي من العلم ما لم يؤت موسى عليه السلام فكان الولي أفضل من النبي ، وكلام الصوفية هذا مردود . بأدلة قاطعة . أولها أن الخضر نبي وليس ولياً .

(٢) تلبيس إبليس ١٦٢ ص .

(٣) صاحب اللمع - وهو من مشايخ القوم .

(٤) تلبيس إبليس ص ١٦٤ .

(٥) تلبيس إبليس ص ١٦٥ .

وهذا منهج سديد حيث يغلب الاحتياط لدين المسلم حتى لا يقع في الرجال، ولكن عندما ننظر إلى مجموع ما نقل عن الجنيد ونظرائه، فإن الأمر يختلف، فإن كثرة ما روي عنه تشجع على اعتباره من مؤسسي التصوف « (١) .

وهذا الذي قيل عن الجنيد يسري على أكثر مؤسسي الطائفة كذي النون في مصر وأبي حمزة الصوفي في بغداد وغيرهم الكثير.



(١) الصوفية نشأتها وتطورها / محمد العبد - طارق عبد الحليم / ص ٣٥ .